اذكروا الشهداء

للأستاذ محمد محمود زيتون

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
قرآن كريم

اليوم .. بعد أن انطلقت أسود العرين من إسارها ، لخوض أروع معركة للتطهير والتحرير ، فى العصر الحديث ، يحق لنا أن نذكر شهداء فلسطين من قواد وضباط وجنود ، نعموا بجوار ربهم ، وخلفوا وراءهم أرامل ويتامى ، لهم عند الله أجر الصابرين

استشهد هؤلاء فى نضال عنيف بين كتائب الحق ، وشرازم الباطل ، بعد أن ائتمرت على قضية فلسطين دعاة الميكيافيلية ، وحماة الصهيونية ، وتمسكنت الذئاب المسعورة حتى تمكنت ، وفى غفلة من الزمن ، قامت لهم « دولة » ، كان يوم ميلادها ، نذيرا بحلقة جديدة من الاستماز الجماعى ، مما أصاب الضمير الإسلامى ، بالحسرة والألم

وشهداؤنا الأبرار ، لم تذهب دماؤهم من جراء مغامرة طائشة ، ولا عدوان غاشم ، وإنما هم الذين حملوا أكفانهم على رءوسهم ، وجادوا بأرواحهم فى سبيل الله ، لا عن حزبية ولا عصبية ، ولا دفاعا عن أموال وضياع ، ولم تكن محارم الله مطيتهم إلى الهدف الذى تسابقوا إليه . وحسبهم أن باعوا الدار وأهلها ، وخفوا لنجدة الجار المهضوم ، والحرم المنهوب ، فأنعم بها من غاية ، وأكرم بها من سبيل

كانت الشهادة — وهى إحدى الحسنيين — رزقا ، يتوسلون إلى بارئ النسم أن يخصهم به ، ورحم الله عمرو بن الجموح إذ حمل سلاحه ، وأخذ يتكفأ فى طريقه — وهو أعرج — ومن ورائه بنوه الأربعة كالأسود يجرون ليصدوه ، ولكنه يتوجه إلى القبلة ، ويضرع إلى الله فى لهفة واشتياق « اللهم ارزقنى الشهادة ، ولا تردنى خائبا إلى أهلى » وقاتل حتى استشهد ، فرآه رسول الله ، وهو يطأ بعرجته فى الجنة

فلنذكر هؤلاء الذين باتت أرواحهم فى حواصل طيور خضر ، يسرحون فى رياض الجنة ، ولنتذاكر ما يوجبه علينا دين الجهاد نحوهم ونحو أهليهم ومواطنيهم أجمعين ، يدفعنا إلى ذلك ، قول نبى المجاهدين عليه الصلوات « من جهز غازيا أو خلفه فى أهله بخير فقد غزا » .. فمن الذى ينكص على عقبيه ، وقد بلغته دعوة إلى غزوة .. نصيبه فيها عمل صالح يرفعه ، ولا يصيبه منها ضربة أو طعنة !

كان رسول الله أول من عنى بتكريم الشهداء ، فقد كان — عقب المشاهد — يجمعهم فى مصارعهم ، ويترحم عليهم ، ويستغفر ، ثم يأمر بتكفينهم فى أثوابهم التى استشهدوا فيها ، وينزع ما عليهم من جلود وسلاح ، ودفنهم من غير غسل ، فقد استشهد حنظلة بن عبد الله بن أبى عامر الفاسق ، وعليه جنابة ، فأطلع الله تعالى نبيه على أمره ، وسماه « غسيل الملائكة »

وكان يقدم للجنازة أكثرهم جمعا للقرآن . ويأمر بدفن كل رجلين أو ثلاثة فى قبر واحد لما يكون بينهم من صفاء أو قرابة فى الدنيا ، وكان يشرف على القتلى ويقول : « أنا شهيد على هؤلاء . وما من جرح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه : اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » ، وكان يواسى ذويهم ، ويوصى بهم خيرا ، ويتعهدهم بحنانه وبره ، ويدعو الله لهم بالخلافة عليهم

كان النبى على فرسه وسعد بن معاذ ممسك بلجامها ، فأقبلت أم سعد تعدو نحوه . فقال سعد : يارسول الله ، أمى .. فقال النبى : مرحبا بها . فلما وقف لها ، دنت منه ، وأخذت تتأمله ، فمزاها بابنها عمرو ، فقالت : أما إذ رأيتك سالما ، فقد اشتريت المصيبة . فقال لها : يا أم سعد ، أبشرى ، وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعا ، وقد تشفعوا فى أهلهم جميعا . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟ يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا . فقال : « اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا »

وسار الخليفة الراشد أبو بكر ، على هدى خليله المصطفى عليه السلام ، فقد دخلت عليه فتاة ، فألقى لها رداءه لتجلس عليه إكراما لها ، ولذكرى أبيها الشهيد الذى قال عنه رسول الله

« رحمه الله ، نصح لله ولرسوله حيا وميتا » [1] وإذ ذاك قدم عمر ، فما إن رأى من أبي بكر هذا التكريم لتلك الفتاة ، حتى عجب من أمرها ، وسأله عنها فأجابه : هذه ابنة من هو خير مني ومنك ، رجل تبوأ مقعده من الجنة ، وبقيت أنا وأنت ، هذه ابنة سعد بن الربيع

وعقب « أحد » احتمل أناس قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة ، فجاء منادي رسول الله يعلن في الناس « ردوا القتلى إلى مضاجعهم » ولم يبق إلا قتيل واحد ، ردوه ودفنوه حيث استشهد

على أن رفات الشهداء الأبرار لا تبلى كسائر الأجساد ، فقد روى أن معاوية بن أبي سفيان أمر بحفر عين جارية وسط مقبرة شهداء أحد ، واستصرخ الناس إلى قتلاهم ، وأمر بنقل رفاتهم ، فأخرجوهم رطابا تثنى أطرافهم ، وذلك على رأس أربعين سنة من دفنهم ، ومع ذلك أصابت المساحاة قدم حمزة سيد الشهداء ، فانبثق الدم ، وفاح المسك ، وكأنما هو صريع ساعته ، مع أن أرض المدينة سبخة ، قيل يتغير الميت في قبره من أول ليلة ، ولكن تأبى الأرض الطيبة — بقدرة الله — أن تأكل لحوم شهداء المعركة ، لأنهم مع النبيين والصديقين والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا

ويجب دفن الشهيد فور مصرعه والصلاة عليه ، فقد رجعت هند بنت حرام بعد أحد تسوق بعيرا يحمل ابنها خلاد بن عمرو ابن الجموح ، وأخاها عبد الله بن عمرو ، وزوجها عمرو بن الجموح ، وصار الجمل يبرك بهم كلما وجهته إلى المدينة ، فإذا ضربت في وجهه إلى أحد نزع وأسرع ، فسألت النبي في ذلك فقال : « إن الجمل مأمور ، فقبرهم بأحد ، يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن »

وفي تاريخ الإسلام أروع الأمثلة لرباطة جأش المرأة المسلمة إذا نعي إليها زوجها أو ابنها أو أخوها أو أبوها ، فهذه حمنة بنت جحش تلقى النبي عند منصرفه من « أحد » إلى المدينة ، فينعى إليها خالها حمزة فتحتسب ، وأخاها عبد الله بن جحش فتحتسب ، ثم زوجها مصعب بن عمير فتصيح مولولة وتقول : واحزناه . فينظر النبي إلى من حوله ، ويقول « إن زوج المرأة لمكان ما هو لأحد » ثم يسألها : لم قلت هذا ؟ فتجيب « تذكرت يتم بنيه ، فراعني . فدعا لها أن يحسن الله الخلف على أولادها

وأثبت منها عند الجزع ، امرأة من بني دينار استشهد زوجها وأخوها وابنها وأبوها ، فلما نعوا إليها احتسبتهم عند الله . واعتصمت بالصبر ، وقالت ، كيف رسول الله ؟ فقيل لها : هو بحمد الله كما تحبين . فتقول أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل ، وتعلقت بثوبه عليه السلام وهي تقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبالي إذ سلمت من عطب

وكانت الخنساء مضرب المثل في الإيمان عند النازلة ، استشهد بنوها الأربعة في القادسية . بعد أن بلغت الثمانين من عمرها . ولما أقبل البشير بعد المعركة ، جاءت تسأله عن حال الإسلام والمسلمين ، فقيل لها : ألا تسألين عن أبنائك الأربعة ؟ فقالت : هم بعد ذلك ، فلما طمأنوها على سلامة جيش الإسلام ، ذكروا لها أن بنيها قد استشهدوا جميعا فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في الإسلام وأسأله تعالى أن يجمعني بهم في مستقر رحمته

والإسلام بهذا لا يتناقض مع طبيعة البشر ، ولا يدعي القضاء على غريزة من الغرائز التي هي القوى الدافعة للسلوك ، أو انفعال من الانفعالات التي هي مظاهر الوجدان . فقد ثبت أن هذا الدين المتين يتمشى مع الطبيعة البشرية إلى الحد الذي يرتفع بها إلى أفق أعلى ، وخلق أسمى

وآية ذلك ، أن نسوة الأنصار جئن إلى النبي يذكرن عمه حمزة يبكينه ويبكين موتاهن ، فصرفهم النبي في غير عنف وهو يقول : ارجعن رحمكن الله . لقد واسيتن معي ، رحم الله الأنصار . وبلغ الحزن مبلغا لم يقدر على مغالبته رجل أو امرأة ، فجاء وفد من الرجال يسألون رسول الله : « يا رسول الله ، بلغنا أنك نهيت عن النوح ، وإنما هو شيء ننتدب به موتانا ، ونجد فيه بعض

(١) بعد معركة أحد ، بعث النبي أحد الأنصار لينظر إن كان سعد ابن الربيع حيا أو ميتا ، فجاءه ، فوجده جريحا وبه رمق ، فقال سعد : أنا في الأموات ، قد طعنت اثنتي عشرة طعنة ، وإني قد أنفذت مقاتلي ، فأبلغ رسول الله عني السلام ، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خيرا ما جزى نبيا عن أمته . وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف . الله ، الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة ، لو الله مالكم عند الله عذر

الراحة ، فائذن لنا فيه ، فقال : إن فعلن ، فلا يخمشن ولا يلطمن ، ولا يحلقن شعرا ، ولا يشققن جيبا

وتكريم الشهداء لا يكون بتلك الأساليب العقيمة المرتجلة ، التي يجترها السطحيون ، فلا يسمو بهم الحس البليد إلى أكثر من اقتراح تسمية شارع أو ميدان أو محطة باسم الشهداء ، أو اقتراح بإقامة نصب أو تمثال أو لوحة تذكارية أو قبر للمجهول في العاصمة والمدن الرئيسية

وما أبعد هذا كله عن سبيل التكريم الخالص لوجه الله ولن نصل بهذه الترهات إلى الهدف النبيل الذي من أجله أرخص الشهداء دماءهم الزكية الغالية

كما أن نقل رفات الشهداء غير جائز اعتمادا على ما أمر به رسول الله عقب غزاة أحد من رد القتلى إلى مضاجعهم ، ولذا يجب إعادة النظر في موضوع الخمسة والعشرين ألف من الجنيهات التي اعتمدتها وزارة الوفد الأخيرة لبناء المقابر بجهة الغفير ونقل رفات الضباط من شهداء فلسطين إليها

وهذا تفكير عقيم ضحل ، إن دل على شيء فإنما يدل على جهل مطبق بحقائق الدين . كما فيه امتهان لكرامة الشهداء الجنود ، وإثارة الأحزان الدفينة في مشاعر ذويهم الصابرة (٢) وعلق رخيص للمواطف النبيلة

وأول ما يجب البدء به لتخليد ذكرى الشهداء ، وتمجيد بطولتهم وتكريم ذويهم . هو إحياء سنة عمر بن الخطاب ، وذلك بإنشاء « ديوان المجاهدين » الذي وضع له اللوائح . ورتب الاختصاصات ، وفرض مستحقات الجند أحياء ولذويهم من بعدهم ، كل حسب بلائه وسبقه في الإسلام

ويجب أن توضع الملفات لأسر الشهداء ، لكي يتسنى للتاريخ الصحيح متابعة مجريات حياتهم ، والتنويه بمظاهر الإعجاب في سلوكهم ، والإشادة بآثار شهدائهم ، مع منحهم مزايا اجتماعية تبقى رمزا إلى ما قدموا للوطن من أغلى التضحيات ،

أما أبناء الشهداء وبناتهم ، فأولئك ودائع عزيزة ، ائتمنت عليها الأمة : جيشا وشعبا وحكومة . فلتكن نشأتهم على خير وجه مسنون من كرامة العيش ، وحسن التربية

فهذا الفتى أسامة بن زيد ؛ عقد النبي له لواء على جيش كثيف لغزو بني غسان قاتلي أبيه ، وهذه الربيع بنت معوذ قاتل فرعون العرب أبي جهل : نراها في عهد عمر تشترى العطر من أسماء بنت مخرمة أم أبي جهل وذات يوم وزنت لها ولأصحابها على الأعطية فقالت لهن أسماء ! اكتبن لي عليكن حق . فلما أملت الربيع اسمها على الكاتب استشاطت أسماء غيظا وبدارت : وإنك لابنة قاتل سيده ، ؟ قالت الربيع : لا . ولكن ابنة قاتل عبده فقالت أم أبي جهل : والله لا أبيعك شيئا أبدا . وقالت الربيع : وأنا والله لا أشترى منك شيئا أبدا : فوالله ماهو بطيب ولا عرف . ولما عادت إلى بيتها قالت لابنها والله يابني ماشممت عطرا قط كان أطيب منه ، ولكن يابني غضبت

هذا الترفع والإباء وليد روح عالية — بلا شك — دفعت ببنت المجاهد إلى مقاطعة البضاعة الكافرة . لمجرد غضبة المسلمة الغيرى على سيادتها وعزتها

وخير هدية من شهداء الوطن نقدمها للجيل الناهض ، سفر كبير . لا يخلو منه بيت ، ولا يدع شاذة أو فاذة من تاريخ الشهداء الأبرار إلا انطوى عليها . مع ذكر تاريخ حياتهم ، ومسقط رأسهم ، ومحامد سيرتهم وبطولتهم ، والمعارك التي أسهموا فيها . إلى غير ذلك مما يقرب إلى النفوس مشاهد الجهاد في عصر تميعت فيه الرجولة ، ورخصت فيه القراءة وطفحت الصحف والمجلات والكتب بقصص الغرام و «أصول الحب » و « نساء في حياتي »

وحق على وزارة المعارف أن تواكب هذه النهضة المباركة حتى تسير حملة التنوير وكتيبة التطهير جنبا إلى جنب . وتنهض بواجبها في بث الروح الجهادية قولا وعملا . فتختار للناشئة نخبة مختارة من أناشيد الحماسة ، وخطب القادة ، وأوامر الأمراء لجيوشهم ، وعرض الأفلام والقصص التمثيلية التهذيبية ، وتسهيل الزيارات لمتاحف الحضارة ، وسرد الوقائع التاريخية بكل دقة وأمانة ، من غير تعليق أو ترويق . هذا مع طبع المعاهد العلمية

(٢) تقدمت إلى « الأهرام » بمقال في هذا الموضوع عقب صدور القرار مباشرة ، وأبلغني الأستاذ الشيخ العسكري أن الأستاذ أحمد الصاوي محمد متفق معي في الرأي ، ولكن من وجهة نظر أخرى؛ وأنه أيضا أعد لذلك مقالا ، فلم ينشر مقاله ولا مقالي .. خشية الفضيحة طبعا